البابُ السادسُ والعشرون

فيمن أَسعَفَ بقضاء الحاجاتِ، وجادَ في العطيَّاتِ

قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «السخيُّ قريب من الله، قريبٌ من الناسِ، قريبٌ من الجنةِ، بعيدٌ من النارِ. والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناسِ، بعيدٌ من الجنةِ قريبٌ من النارِ».

وقال ﷺ: «ما تحسرتُ على موتِ أحدٍ كتحسرّي على أبي طالبٍ؛ في بِرّه، وحاتمِ الطائيِّ في جوده، وامرئ القيسِ في شعره».

وأُتيَ عمرُ بنُ الخطابِ بأربعِ مئةٍ من الإبلِ، محملّة دراهمَ ودنانيرَ ولؤلؤاً وَزَبَرْجَداً، من غنائم فارسٍ، فلمّا نظر إليه قال: واللهِ لا يأويني وإياها سقفُ بَيتٍ حتى أقسمَه بين المسلمين، ثم بكى، فقيل له: إن هذا المقام مقامُ فرحٍ وشكرٍ، قال: ما فُتحتِ الدنيا لقومٍ قطُّ إلا وأُلقي بينهمُ العداوةُ والبغضاءُ، قال فلم يمُسِ وعنده منه شيء.

وكان يقال: من أراد العلمَ والسخاءَ والجمالَ فليأتِ دار العباسِ بنِ عبدِالمطلبِ، كان عبد الله أعلمَ الناسِ، وكان عبيدُ اللهِ أسخى الناسِ، وكان الفضلُ أجملَ الناس، ثم قال: دخل أعرابي على عبيدِ اللهِ بنِ عباسٍ،

(1) آل عمران: الآية (92).

فقال: أصلح اللَّهُ الأميرَ، عليَّ دَينٌ غالبٌ وصبيةٌ مجموعة، فقالَ عبيدُ اللهِ، كم دَيْنُك؟ قال خمسون ألفَ درهمٍ، فأمرَ له بها، فأنشأ الأعرابيُّ يقول:

أمِنتُ بداودٍ وجُودِ يَمينه
من الحدثِ المغشي والبؤس والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداودَ نَبوَةً
ولا حَدثان أن شَدَدتُ به ظهري
فما طلحةُ الطلحات ساوا مي في الندى
ولا حاتمُ الطائي ولا خالدُ القسري
له عِلْم لقمانٍ وصورةُ يوسفٍ
وحُكْمُ سليمانٍ وعدلُ أبي بكرِ
فتىً تهربُ الأموالُ من جُودِ كفّه
كما يهربُ الشيطانُ من آخرِ الحَشرِ

قال: وحضر أعرابيٌّ باب معنِ بن زائدةَ الشيبانيِّ، فلما جاء الإذن دخلَ عليه، ومعه ابنٌ له، فقالَ معنٌ: ما اسمُ ابنِكَ؟ فأنشأ يقول:

سَمَّيتُ مَعْناً بمَعْنٍ ثُم قلتُ له
سمىٌّ أمْرِ في الناسِ محمودِ
أنت الجوادُ ومنكَ الجودُ أولهُ
فإن هلكتَ فما جودٌ بموجودِ
أضْحَتْ يمينُكَ من جُوْدٍ مُصَوَّرَةً
لا بلْ يمينُك منها صُورَةُ الجودِ
لنورِ وجهِكَ تُمسي الأرضُ مشرقةً
ومن بنانِكَ يجري الماءُ في العودِ

قال: فأمرَ له بأربعةِ آلافِ دينارٍ، ثمَّ قال له: لو زدتنا يا أعرابيُّ زدناك، قال حسبنا وحسبك، ما قلتُ وسمعتَ، وكفاني ما أخذتُ.

قال: وكانَ أبو دُلَفٍ اتخذَ نَهَراً في قصرِه وكتبَ في كل زاويةٍ من زواياه بيتاً، فأولُ زاويةٍ منه مكتوبٌ فيها:

منزلُنا رحبٌ لمن زارنا
نحنُ سواءٌ فيه والطارقُ
غيرُ أهالينا وأولادِنا
فلم يُرَخِّصْ فيهمُ الخالقُ
ونشْتَري الحمدَ بأموالِنا
والحمدُ فيما بيننا نافقُ
لا نرهبُ الفاقةَ من ربِّنا
وربُّنا الواسعُ والرازقُ

قال: وقدمَ (الراعي) على خالدِ بن عبدِالله، ومعه ابنُه جندلٌ، وكان يغشاه مع ابنه، ثم فَقَده، فقال خالد: ما فعل ابنك؟ قال توفي -أصلحَ اللَّهُ الأميرَ- بعدما زوَّجته، وأصدقتُ عنهُ، فأمرَ خالدٌ بديةِ ابنِه، وصَداق أهل بيته، فقال الراعي:

وديتَ ابنَ راعي الإبلِ إذْ خانَ يومُه
وشَقَّ له قبراً بأرضِكَ لاحِدُ
وقدْ كانَ ماتَ الجودُ حينَ نعيتُه
وأذكيتُ نارَ الجودِ والنارُ خامِدُ
فما حَمَلَتْ أنثى ولا آبَ غائبٌ
ولا عاشَ ذو سُقْمٍ إذا ماتَ خالدُ

قـالَ: ودخلَ أعرابيٌّ على مَعْنِ بنِ زائـدةَ الشيبانيِّ فوقفَ بين يديّه، ثم أنشأ يقولُ:

أصْـلَحكَ الله قـلّ مـا بِيَـدِي
ولا أُطـيـقُ الـعـيـالَ إذا كَـثُروا
أَوْدَى بـهـم دهـرَهـم بِكَلْكَلِهِ
فـأرسَـلـوني إلـيـكَ وانـتـظَـروا

قـال: فأمرَ له بألفِ دينارٍ وجمل، قـال: فأخذ الأعرابيُّ وأرسلَ دموعَه، فقـال: ما يُبكيك؟ لعلّـكَ استقللتَ ما أعطيناك؟ قـال: لا، ولكنْ ذَكرتُ ما تأكلُ الأرضُ من كرمِك، ويُهالُ الترابُ على مثْلِكَ غداً، فذلك أبكاني، قال: زيدوه ألفَ دينارٍ، وجملاً آخرَ.

قـالَ: وجَـاء أعرابيٌّ إلى خالـدِ بنِ عبدِالله القسريِّ، فقـال: أَصْلَحَ اللَّهُ الأمـيرَ، إني امرؤٌ جئتُك ببيتين من الشّعرِ، فاسمعْهما، قال: هاتِ، فأنشأ يقولُ:

أخـالـدُ إني لَمْ أزرْكَ لحاجةٍ
سـوى أنـنـي عـافٍ وأنـتَ جـوادُ
أخالدُ بينَ الحمدِ والأجرِ حاجَتي
فـإنـهـمـا بـابـي وأنـــتَ عـمـادُ

فقـالَ خالدٌ: حاجُتكَ يـا أعرابيُّ قالَ: مئةُ ألفِ درهمٍ، قالَ قد أسرفتَ، قـالَ حططتُكَ تسعين ألفاً، فضحك خالدٌ، وقـال: واللهِ لا أدري أيَّ أمريكَ أعجـبُ؛ سؤالـكَ أم حطُّك؟ قـال: فقلت: كلاهما على قَـدْرِك، قال خالد: واللهِ لا يغلبني على معروفٍ أبداً، يا غلامُ أَعْطِه مئةَ ألفٍ.

الحكايةُ

حكي: أنه دخَلَ حمزةُ بنُ بيضٍ على مَخْلَدِ بنِ يزيدَ بن المهلّبِ، فقال له: ما وراءَك يا حمزةُ؟ قال: أصلحَ اللَّهُ الأميرَ، إني رأيتُ رؤيا، قال: هاتها على بركة الله، فأنشأ يقول:

رأيتُك في المنامِ صَبَبْتَ خزاً
عليَّ بنفسجاً وقضْيت دَيني
فَصَدِّقْ فدتكَ النفسُ رؤيا
رأتها في المنامِ كذاكَ عيني

فقال: يا غلامُ كم عندكَ من جبةِ خزٍّ بنفسج؟ قال: ثلاثون، قال: اكْسُها حمزةَ.

قال: كم دَيْنك؟ قال: عَشَرَةُ آلافِ درهمٍ، قال اقضُوها عنه، ثم قال: يا حمزةُ إياكَ أنْ ترى رؤيا مثلَ هذه.